تركيا في بلاد العرب

عقد محرر جريدة التيمس الانكليزية الشهيرة مقالة في مسألة شبه جزيرة العرب ترجمتها بالعربية جريدتنا الهدى ومرآة الغرب الشهيرتين في نيويورك فأحببنا ان ننشر ترجمتها في المنار وهي : —

اهتم الناس كل الاهتمام بالمأساة العظيمة التي تمثلت في شبه جزيرة البلقان حتى انهم لم يكترثوا كثيرا للمعارك الصغيرة التي نشبت من مضي شهرين أو ثلاثة أشهر في بلاد العرب

وقد كانت بلاد العرب من مضي عدة قرون ارضا مجهولة مهجورة مرت حولها مجاري التاريخ البشري دون أن تتوغل فيها . وهي شبه جزيرة كبرى واقعة بين ثلاث قارات كبرى تتكسر امواج البحار العظامي على شواطئها من ثلاث جهات وكل سنة يسير على سواحلها العارية الجرداء عشرات الالوف من الناس ولكنها بالرغم من ذلك لا يعرف الناس عنها أكثر مما عرفوه عن اشور في ايام اشور بانيبال

ولكننا نسمع بعض الاحيان من وراء كثبانها المحرقة اصداء ضعيفة عن قتال شديد ناشب هناك ، وترد على اسواق بومباي والقاهرة أخبار معارك شديدة بين محاربين مدرعين وجيوش تتصادم بالسيوف وتتطاعن بالذوابل وتتراشق بالسهام وتتقاتل في الليل ويقع بينها حصار وخروج وهجوم ومباغتة

وهؤلاء الناس بالرغم من انهم لا يزالون على بداوتهم يتأثرون بمجرى الشؤون الحديثة كما اثبتت الحوادث الاخيرة ، فلما انتصر البلغاريون على العثمانيين في تراقية وارجعوهم الى خطوط شتالجه قال الناس ان تركيا تقدر ان تنشيء مملكة عثمانية مجددة في اسيا الصغرى ، وقد وافقهم على قولهم هذا القليلون الذين عرفوا الحقيقة ولكنهم ارتابوا في ما اذا كان الاتراك يقدرون ان يؤيدوا سلطتهم المتداعية في اطراف بلاد العرب ، فلم تكد معاهدة الصلح توقع في لندن حتى ثار العرب في اواسط شبه جزيرة العرب ولكن ثورتهم لم تكن منظمة اذ لم تسر كتائب من الجنود المنظمة على الطرق الصحراوية بل وقع القتال بين ثلاث قليلة من فرسان العرب غير المدربين على أساليب القتال الحديثة وشراذم من الجنود العثمانيين ذوي الملابس الزرقاء ، وقد انتصر العرب في الشهر الماضي على الجنود العثمانيين واخرجوهم من شرقي بلاد العرب وبذلك ذهبت فتوحات مدحت باشا المتقلقلة في بلاد العرب واصبحت الطرق الشرقية *

الى مدينتي الاسلام المقدستين « مكة والمدينة » تحت رحمة زعماء العرب المتنصرين

ولا يمكن القول بأن اندحار الاتراك في الحرب البلقانية احدث هذه الحركة في بلاد العرب فانها بدون تلك الحرب ممكن حدوثها لان سيطرة الاتراك على بلاد العرب لم تكن قط قائمة على ركن منيع، فمن مضي مائة سنة قامت الحركة الوهابية في بلاد العرب واستولى الوهابيون الخارجون على الدين الاسلامي(؟) والخلافة الاسلامية على اكثر جهات شبه جزيرة العرب ونهبوا مكة مقدس المسلمين السنيين، وكربلاء محجة الشيعيين ، وهددوا مدينة دمشق، فعجز الاتراك عن اخماد ثورتهم فاستعانوا بمحمد علي باشا خديوي مصر فقمع من نحوتهم، واخمد الحركة الوهابية. ومنذ الغارة المصرية الكبرى على بلاد العرب نال الهلال انتصارات قليلة في تلك البلاد حتى ان الخط الحجازي لم تستطع الحكومة العثمانية تأمينه الا برشوة القبائل العربية ، فالخط الحديدي الممتد الى المدينة هو دائما تحت خطر

وقد نشبت بالامس ثورة طال عهدها في ولاية العسير جنوبي مكة، وثورة اخرى اعظم منها في ولاية اليمن ، ولا تزال نيران هاتين الثورتين كامنة تحت الرماد ، انفق الاتراك كثيرا من المال والرجال على اخمادهما فما نجحوا ، ولذلك اخذ مركز الاتراك في تلك البلاد يتداعى يوما بعد آخر، ورؤية جنودهم المغلوبة المنطرحة على متن باخرة انكليزية في خليج بلاد فارس هي من الادلة الكثيرة الراهنة على تداعي مكانتهم في شبه جزيرة العرب

هذا وان تجدد القوة العربية في شكلها الحاضر يرجع الى عهد يزيد قليلا عن عشر سنين . اما منشئها الحقيقي فهو مبارك بن الصباح امير الكويت ذلك السياسي الشيخ والمحارب المنيع الجانب الذي يبسط نفوذه على اكثر جهات بلاد العرب مع انه لم يطأ بارض خارجة عن حدود مسقط رأسه

وبيان الامر ان المصريين بعد ان اخمدوا الحركة الوهابية واسقطوا امراء هابي السعود انتقلت السيطرة على اواسط بلاد العرب الى ايدي امراء بني الرشيد الذين جعلوا عاصمتهم بلدة (حائل) في قلب شبه جزيرة العرب وحكموا هناك سبعين سنة وقد كانوا اقوياء الجانب احرياء

وفي اوائل القرن الحاضر كان اميرهم المقيم في حائل ذا مطامع تتجاوز قوته فدعا نفسه « ملك بلاد العرب » وباشر الزحف على خليج فارس وهدد الكويت فخرج الامير مبارك بن الصباح من عاصمة امارته الصغيرة للقائه وقتاله فقاتله وانتصر

عليه، وتعقب رجاله المغلوبين حتى منتصف الطريق عبر بلاد العرب واستولى على حائل عاصمة ولايته وكان غرض الامير مبارك من هذه الغارة تأديب ابن الرشيد فقط لا بسط حكمه على نجد ولذلك قفل راجعا، وعند رجوعه الى الكويت أخذه ابن الرشيد على غرة فانه جمع جموعه وباغت رجال الامير مبارك ليلا وهم يعبرون معبرا صخريا وضربهم ضربة قاضية فقتل منهم خلقا كثيرا، والذين نجوا من الموت في هذه المعركة ترادف كل ثلاثة منهم على متن جواد ووصلوا سالمين الى الكويت

غير أن الامير مباركا كان شجاعا جريئا فأضمر الشر لابن الرشيد ودعا أبناء اسرة السعود الوهابية التي اسقطها المصريون وعالهم وآواهم واعطاهم مالا وسلاحا وارسلهم الى الصحراء العربية لاسترجاع مملكتهم المفقودة

وكانت لابن الرشيد عاصمتان الحائل في الشمال والرياض في الجنوب فرفض احد شبان اسرة ابن السعود على الرياض وكان يجمع الرجال في مسيره حتى بلغ عددهم ثلاثة آلاف، وقد توقف بهم سرا في احدى القرى القريبة من الرياض وهجم فحت الظلام المطلق على المدينة بخمسين فارسا باسلا لا يهاب الموت

وقد وقعت هذه الحادثة من مضي عشر سنين وهؤلاء الفرسان الخمسين تجددت ولاية ابن السعود، فلما عند وصولهم الى باب المدينة جعلوا رئيس الحراس يفتحها لهم بخدعة حربية، ولما دخلوا اعملوا المهاميز في شواكل خيولهم واجتازوا اسواق المدينة بسرعة البرق وهجموا على قصر الحاكم ابن الرشيد وذبحوه، وعند انشقاق عمود الفجر دخل بقية رجالهم وجددوا الولاية الوهابية في تلك الجهة . وقد حصر ابن الرشيد ثلاث سنين في مدينة حائل ولكن ابن السعود انتصر عليه في آخر الامر وقهره في اقليم قاسم على منتصف الطريق بين المدينتين

أما المعركة الاخيرة التي نشبت بين رجال ابن السعود من جهة ورجال ابن الرشيد وبعض الجنود العثمانية من جهة اخرى، فقد اسفرت عن انتصار الاولين وقتل ابن الرشيد بثلاثة سهام اصابه احدها في فخذه فسمره بسرج جواده، وقد ابلى رجال ابن السعود في هذه المعركة بلاء حسنا فكانوا لا يرمون سهما الا بعد معرفتهم انهم سيصيبون به رجلا من اعدائهم

وكانت نتيجة هذه المعركة ان ابن السعود صار مسيطرا على كل نجد وتم له ما اراد من مضي عهد طويل من اخراج الاتراك من بلاد العرب وارجاعهم الى سواحل خليج العجم، ولكن انتصاره هذا لا يدل على تجدد الحركة الوهابية الحقيقية، بل هو تجدد

موقت لها، كما انه لا ينوي اعلان جهاد جديد لان العالم لم يعد يرى بعد تيارا سريعا من القوات الاسلامية متدفقا من رمال بلاد العرب

نعم ان عرب البادية هناك يتضامون ولكنهم غير متحدين اتحادا يستطيعون به ايقاد حروب وفتوحات، ولا تحول في صدورهم حمية دينية كافية لان تمكنهم من اعلان جهاد جديد أو ارغام غير المسلمين بالقوة، ولكن تجدد قوتهم يبطل خطرا على الاتراك، ولذلك ترى اصدقاء تركيا المخلصين لها ينصحون لها بنية صافية ان تصالح ابن السعود الذي يعتقد انه يميل الى مفاوضة السلطان بطاعة واحترام، فواحات الاحساء القليلة غير مفيدة لتركيا في حين ان علائقها الولائية بمحاكم نجد تنفعها كثيرا، والامر الذي يهم تركيا اكثر من غيره في بلاد العرب هو ان تبقى لها السيطرة على مدينتي الاسلام المقدستين لتحفظ اعتبارها وهي صاحبة الخلافة الاسلامية في عيون المسلمين، وخير ما يساعدها على ادراك غايتها هذه هو اتفاقها مع ابن السعود

وكان من الواجب عليها ان تكشف عن ارسال الجنود الى اليمن، وتنشيء علائق ولائية مع امام صنعاء على قاعدة ان تسلطه على تلك الولاية تحت سيادتها، وكذلك يجب عليها ان تمشي ثورة السير بهذه الصورة فتسلط الادريسي على تلك الولاية تحت سيادتها ايضا. وبهذه الطريقة تكتفي مؤونة ارسال كثير من المال والرجال الى تلك البلاد على غير فائدة، ولا تخسر حقوقا ارضية لا ينازعها اياها منازع في الوقت الحاضر، وتستطيع بعد ان يهدأ بالها من جهة العرب ان تصرف كل الانصراف الى المهام الحيوية التي لا تزال تنتظرها في آسيا الصغرى اه

(المنار) خير ما في هذه المقالة خاتمتها، فهو النصح الخالص لدولة العثمانية الذي سبقنا اليه غير مرة (وقد يستفيد الغلاة المتنصح) والقسم التاريخي منها يشوبه شيء من الخطأ كقوله ان الوهابيين كانوا خارجين على الدين الاسلامي والخلافة، فهذا خطأ فهم مسلمون متشددون في التمسك بالاسلام، وجل ما عزي اليهم من الشذوذ كذب افترته السياسة وبعضه من الخطأ الذي اقتضته طبيعة القتال لا تعاليم المذهب ـ وكقوله ان مكة مقدس أهل السنة وحجهم، وكربلاء حج الشيعة. والصواب ان مكة هي حج جميع المسلمين، واما كربلاء فليست حجا واجبا لأحد ولكن يزورها الشيعة كثيرا وغيرهم قليلا، وما ذكره الكاتب من ان ابن سعود وامام اليمن والادريسي كلهم يودون الاستقلال في بلادهم تحت سيادة الدولة صحيح، وأصح منه قولا ونصحا قوله ان الواجب على الدولة ان تترك قتالهم، وتعطيهم استقلالهم، ولكن هل يعقل هذا رجال الآستانة ويعملون به؟ الله أعلم